ديكتاتوريته التي أحببتُها..

«فما زالت الأزمة الحضارية قائمة.. والاستبداد يزداد ضراوة»

بدأت علاقتي تتوطد سريعًا بالرجل.. أصبحتُ أسير صحبته ليل نهار، وانحصرت آفاق حياتي بين العمل والرجل.

وصار الأصل هو المبيت عنده، وما سوىٰ ذلك استثناءٌ لا يُقاس عليه.

في البداية وجدتُ عناءً شديدًا حيال ديكتاتوريته التي أحببتها فيما بعد، وقاومت نفسي المتمردة علىٰ تقبُّل هذا الوضع الصعب... وخبرَ الرجل عصبيتي وسرعة انفعالي و(أَنَفَة الفلاحين) كما كان يحلو له أن يُسمِّيها، وكثيرًا ما يقول: ليس بك عيب سوىٰ عصبيتك، وارتباطك بالبلد، وعقوقك لي فيما أُشير عليك به.. وعقوقي إياه الذي قصده هو أمر الزواج؛ حيث كنت عزبا يومذاك.

نال مني الإرهاق نيلا كبيرا، فقد كان– رحمه الله– دائم التنقل من مكان إلىٰ آخر، مرة في شقة العجوزة، وأخرىٰ في شقة الهرم، وليلة في وادي حوف بحلوان، وأخرىٰ عند الأتراك، وكثيرا ما أسافرُ معه في سيارته الفرنسية القديمة **Peugeot** إلىٰ مدينة المحلة وقريته (سندسيس).. وهكذا صرتُ رحالةً من حيثُ لا أدري.

لم أكن وحدي في المنظومة المحيطة بالرجل، بل تعددت مسارب

العلاقة بينه وبين عدد من الأصدقاء وطلبة العلم، فهناك الصديق الدكتور عبد الوهاب القرش، لصيقه الدائم قبل قدومي، وهو رجل قليوبي مهذب، والصديق الدكتور يحيىٰ العباسي صاحب الثقافة الواسعة، وطارق– سكرتيره السابق في (دار الصحوة) التي كانت شراكة مع الشيخ القرضاوي، والشيخ الغزالي– رحمه الله– أيضًا.

***

عشقُ الرجل للعمل ليس له نظير..

نعمل في إعداد رسالة شهرية لمجلة الدعوة السعودية سواء بالكتابة أم بالاستكتاب، أو تنقيح كتاب قديم له لإعادة طبعه..

نجهز حلقاتٍ يومية مع الدكتور فوزي خليل– رحمه الله– في برنامجه (الإيمان والحياة)..

هكذا كنا.. نَصلُ الليل بالنهار بين صفحات الكتب والمراجع.. ومن حينها جفاني الوَسَنُ وجفوته علىٰ كره مني، فغبطتُ أهل الكهف علىٰ نومتهم الهنيئة.

يثير مني مواطن العجب في شخصية الدكتور عويس، أنه كان يطلب أن أوقظه بعد نصف ساعة أو ساعة علىٰ الأكثر، وكثيرًا ما كنت أشفق عليه فأتركه حتىٰ يستريح لعلمي أنه لم ينم، فيصحو مرتاعًا وكأنما لدغتْهُ حيَّةٌ، ثم يصيح قائلا: يا أخي الله يهديك، بقولك صحيني بعد نص ساعة تسيبني نايم ساعة بحالها.

يا إلهي!

إن ساعة واحدة لا تكفيني لاستدعاء النوم نفسه، فكيف له أن ينام هذا الوقت الوجيز، فتقر به نفسه؟!

لابد أنه خلقٌ آخر.. أو هو تركيبة إنسانية مختلفة..

يستغلُّ كل لحظة من حياته، إما بالقراءة، أو بالكتابة، أو بالمراجعة، أو ما عدا ذلك من شئون الفكر.

***

وخصومته- رحمه الله- للبرد قديمة وتاريخية، سواء أكُنَّا في البيت أم في السيارة، لكن الأمر يخرج عن نطاق التحمل إذا كُنَّا في الصيف؛ حيث نركب السيارة فلا يفتح نافذته، ولا يسمح حتىٰ بفتح نافذتي، ولو بصيصًا أتنسم شيئًا قليلا من الهواء، والويل لمن ركب في المقعد الخلفي، فسيصل إلىٰ وجهته مشويًا أو مقليًا.

والوضع في الشتاء أشدُّ ضَرَاوة حيث التحرز من الرطوبة والهواء، فالحجرة لابد فيها من تشغيل التكييف الساخن والمدفأة مع موقد الغاز الذي نستخدمه في عمل المشروبات الساخنة، مع تغليف أجسامنا بكل ما تيسَّر من الملابس والعباءات، ما كان منها مغربيًا أوتركيًا أو حتىٰ قوقازيًا..

وهكذا تصطبغُ وجوه الحاضرين بالحمرة، لا خجلا وحياءً؛ بل بفعل الأفران التي لا يرضىٰ بغيرها بديلا، والويل كل الويل لمن تسول له نفسه فتح الباب، ولو يسيرًا، أو إبطال مفعول أية وسيلة للتدفئة، وإلا وقعت عندها الواقعة.

إنها ديكتاتورية من نوع خاص!

***

خبرته بقيادة السيارات وعلمه بدروب القاهرة وحواريها لا مثيل لها، لَكَمْ طلب مني تعلم القيادة، إلا أني لم أحبها يومًا، ولا تخيلتُ قابليتي لهذا الأمر، ولذا كان يتندَّر قائلا: والله كويس، حضرتك قاعد كده وأنا سايق.. يعني سواق بدرجة أستاذ دكتور! يا أخي الله يهديك اتعلم السواقة بقىٰ!!

لم يكن المصحف المرتل للشيخ محمد أيوب ليبرح السيارة ألبتة، إنه يُحِبُّه حُبًا جمًا، يستمع إلىٰ جزء واحدٍ يوميًا للمراجعة معه بصوت عالٍ، وربما بَدَا له أن يستمع إلىٰ قراءتي ويطلب مني الإسراع في القراءة إلىٰ درجة (الحَدْر) حتىٰ تقطَّع أنفاسي..

يا للعجب!

الرجل يستظهر القرآن كما لو كان قريب العهد بحفظه، وكثيرًا ما يقرأ في الصلاة بمواضع لا تخطر لمُصَلٍّ علىٰ بال.

لا أزال أذكر قراءته الخاشعة في سورتي (هود) و(يونس)، وكذا الآيات التي كان يُفضل قراءتها من سورة الأعراف (فلما ذهب عن موسىٰ الغضب..)، وطالما قرأها في الصلاة فبكىٰ وأبكىٰ..

دَهَشَني هذا الأمر! فكيف لمثله أن يحفظ هذا الحفظ المُتْقَن؟!

سألتُه عن ذلك، ففاجأني بأنه أزهري حتىٰ مرحلة الثانوية!

***

ليلًا كُنا..في طريقنا من مدينة نصر إلىٰ العجوزة، صعدنا فوق كوبري أكتوبر، كنت متعجِّلا الوصول، ليس للنوم فحسب؛ وإنما لأتنفس بعض الهواء المُحرَّم.

يا إلهي!

تعطَّلت السيارةُ، وتوقفت بنا في مكان صعبٍ جدًا، هنالك عند انحناءة الكوبري باتجاه العباسية، ولم يكن بُدٌّ من نُزُولي والوقوف خلف السيارة ملوِّحًا بكلتا يدي لعل قادمًا يرق لحالي.

أزْبَدَ مولانا وأرْغَىٰ..

ها هو أحد الخلق- أكرمه الله- يستجيبُ متطوعًا لإصلاح السيارة، وتم له ذلك في وقت قياسي.

ظلَّ البعض يُشيرُ عليه بشراء سيارة (أتوماتيك) بدلا من سيارته القديمة، إلا أنه كان يتأبَّىٰ حتىٰ نصحه الأطباء المعالجون بذلك؛ فسأل عن سيارة رخيصة الثمن تؤدي الغرض، فأشار عليه البعض بسيارة (دايو) جديدة، فقبل الأمر.

***

لم تقتصر علاقة الدكتور بالطلاب الوافدين علىٰ تدريس العلم، بل تعدَّىٰ الأمر ذلك بمراحل.

يجتمع في بيته العربي والأعجمي، والأبيض والأسود، والكبير والصغير، وقد خصص عدة شقق للوافدين في حلوان.

يتكفَّل بنفقاتِ كثيرٍ من الأسر الوافدة التي كانت تضم الطالب

وزوجته وأطفاله، فيظل حتىٰ يتخرج فىٰ رعاية الدكتور.

ولن أنسىٰ أن طالبًا آسيويًا احتال فأخرج زملاءه من الشقة المخصصة لهم وتزوج بها، فعلم- رحمه الله- وعاتبه، بيد أن معرفة الطالب بطيبة الرجل جعلته يرفض ترك الشقة رغم توفير مولانا مسكنا بديلا له.. فقد رتَّب أموره علىٰ ذات المسكن وحَسَمَ أمره، ويا للعجب، كان له ما أراد.

ومن أغرب المواقف التي حدثت معه يوم أن جاء من البلدة ومعه كمية كبيرة من الأرز فطلب مني مصاحبته، توجهنا إلىٰ بعض الطلاب الأجانب، وحمل حِمْلًا ثقيلًا.. وأصرَّ أن أحملَ حملا خفيفًا!

وصلنا إلىٰ باب الشقة، استأذنني في النزول إلىٰ الطابق الأدنىٰ حتىٰ يدخل، ثم الصعود ثانية وكأنني جئت للتو، لم يُرِدْ أن يراني الطلابُ حالَ تصدُّقه عليهم..

تذكرت حينها الأساتذة الذين كانوا يتفنَّنون في تصفير جيوب الطلاب، تارة بالكتب، وتارة أخرىٰ بالمذكرات، وهكذا دواليك!

رحمه الله.

كان مرهف الحِسِّ، طيب القلب، ناصعَ النفس مُطْمَئِنَّها.

***

بيت الرجل بمدينة نصر مقصد لكل الطلاب علىٰ اختلاف أعراقهم، يأتي الواحد منهم فيطلب ما راق له من الطعام وكأنه في (أبو شقرة) أو (الدهان)، أو (أستاذ حمام) وليس في منزل، حتىٰ إن طالبًا

روسيًا جاء وزميل له قبل شهور قليلة من وفاته، فأمر له بالطعام والشراب، فقامت زوجته بإعداد الطعام– وكنا في وقت متأخر من الليل– خرج الضيفان لتناول الطعام وسرعان ما عادا مغاضبين، فسألهما الدكتور: لِمَ لَمْ تأكلا؟! فقال أحدهم بلغة متكسِّرة: أستاذ هذا جُبْن، بيض، بطاطس، فقط! لا توجد لحوم، أسماك، أرز، شوربة؟

كان محمد الحداد يراقب ما حدَث وقد احمرَّ وجهُهُ واكفهرَّ..

انتفض الدكتور حينها.. نادىٰ زوجته يوبِّخها، فتدخلتُ، وقد بلغ بي الغضب مداه.

- يا أستاذنا، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً ونحن في الشتاء، وهي منتصبة علىٰ قدميها مُذ أصبحنا.. وليس لها من عمل إلا إعداد الطعام للداخل والخارج، وهذا أمرٌ لا يُطاق.. والآن من حقها أن تخلد إلىٰ الراحة لا أن تُعيد الطبخ من جديد.

- يا أخي أنت دائمًا تدافع عنها بالحق وبالباطل.

- أليس هذا بالحق؟!

هزَّ رأسه مرارًا في حركة مِن أعلىٰ إلىٰ أسفل، ومط شفتيه ثم قال:

- بلىٰ.

أصحابُ علي

«فهل رأيتم دينًا وحضارة علىٰ هذا المستوىٰ من تقدير الحياة والإنسان؟!»

كان عليّ أن أخضع لاختباراتٍ عدةٍ قبل أنْ يوليني الرجل ثقته، ولِمَ لا؟!

أغضبني هذا الأمر في نفسي كثيرًا، بيد أنِّي التمستُ له العذر، فالرجل لم تكن له بي سابقة معرفة، وأنا أسعىٰ حثيثًا إلىٰ الجلوس بين يديه والتعلم منه، ونسيان حظ نفسي من مُتع الدنيا التي يطيبُ بها أقراني...

ظللت رفيقا له في السنوات العشر الأخيرة من عمره بشكل دائم، ولم يخفف عني هذا الأمر في السني الأخيرة سوىٰ وجود الصديق محمد الحداد الذي قام بين يدي شيخنا بإخلاص، يتولىٰ قضاء كل حاجاته، كبيرها ودقيقها، بدءًا من أعمال السكرتارية وحتىٰ تطبيبه، والإشراف علىٰ علاجه في مرضه، لا سيما في ظل غياب أبنائه، فأحمد في بعثة علمية بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول علىٰ الدكتوراه، وأنس مشغولٌ هو الآخر برسالته، فضلا عن عمله في مركز البحوث الزراعية بالمنصورة، الأمر الذي أوجب علىٰ الأخير الإقامة في المحلة الكبرىٰ.

باختصار شديد: اختبرَني الرجل حتىٰ خَبرَني.